صورة المسكن المغربي الإسلامي في العصرين المريني - الزياني من خلال النصوص التاريخية والشواهد الأثرية•

المسكن الإسلامي(الدار):

يحيط الغموض بطبيعة العمارة المدنية من دور وقصور[١] ببلاد المغرب قبل القرن ١٠هـ/ ١٦م، بما فيها عمارة المسكن المريني - الزياني ليس في تلمسان وحدها، بل وحتى في فاس وبقية مدنهم بالمغرب الأقصى.

فأعمال البحث مازالت في بدايتها، والدراسات التمهيدية لم يشرع فيها بصفة جدية بالرغم من توفر بعض الوثائق التسجيلية: مادية أثرية وكتابية نجت من إتلاف الزمن، وحتى هذه الأخيرة وإن توفرت في المغرب وتونس فهي ليست بالقدر الكافي الذي يمكّن الباحث من الإفادة منها إلى الدرجة التي يستطيع معها تنميط الدور والقصور وإقرار قاعدة لها من منطلق تخطيطها وتركيبها، أما في المغرب الأوسط فإن الأمر يبدو أكثر صعوبة نظرا لغياب تلك الوثائق غيابا كاملا إلا ما تركته سجلات الأوقاف في الفترة المتوسطة والمتأخرة من العصر العثماني.

غير أن الظواهر العامة التي تتحكم في طبيعة الدور وتطبيقاتها المعمارية متشابهة في العالم الإسلامي لخضوعها لنفس القيم الدينية والمعايير الاجتماعية والأخلاقية والتي انعكست انعكاسا طبيعيا على نمط المساكن من حيث تخطيطها وتركيبها المعماري وإن اختلفت في التفاصيل بين منطقة وأخرى، مما يمكّن البحث من المقاربة مع الإطار العام للموضوع.

وإذا انتقلنا إلى العالم الريفي، فإن الأمر يبدو أكثر تعقيدا لعدم اهتمام النصوص التاريخية والجغرافية والرحلات إلا بالمدن والأمصار.

وعليه فإنه لم يبق أمام الباحث غير اللجوء إلى النصوص التاريخية والأدبية مع ما تحمله من تضارب ونقص لا تكمله أو تحقق الغرض منه إلا ما تكشف عنه الآثار وما تستجليه الأبحاث الأثرية العمرانية والمعمارية.

والواقع أنه كلما ازددنا توغلا في الماضي وبعدا عن العصر الحديث الذي يمكن تحديده في المغرب بانضوائه تحت راية الدولة العثمانية(ماعدا المغرب الأقصى) ازداد وضع تنميط الدور المغربية غموضا ودراستها تعقيدا ومشقة، نظرا لعوامل عديدة كوفود طراز جديد مع الأتراك والتغييرات الموضوعية التي تقتضيها طبيعة الحياة وحركية المجتمع المجددة لكل قديم والمصلحة أوالمرممة لكل تالف.

وإذا كانت العمارة المدنية الحديثة (ابتداء من القرن ١٠هـ/ ١٦م) قد حظيت ببعض العناية والاهتمام وخاصة في تونس[٢] فإنها في المغرب كانت أقل[٣] وفي الجزائر يزداد

• د. عبد العزيز لعرج:

[١] المسكن أو الدار اوالقصر: مصطلح يختلف في لفظه واشتقاقه اللغوي ولكنه يتشابه ويتطابق في نظامه المعماري ونمطه التخطيطي،وإن اختلف هذا عن ذاك فذلك في التفاصيل والحجم والمستوى الفني والزخرفي، بناء على ثراء صاحب المبنى أو قلة ثرائه. ومصطلح الدار هو المتداول في النقوش الكتابية، بينما يستخدم مصطلح الدار أو القصر أو المسكن في النصوص الكتابية.

[٢] يشار بصفة خاصة إلى الأعمال القيمة للسيد/

J.Revault, Palais et demeures de Tunis, (XVI - XVII° siecles), C.N.R. S. Paris 1967, même auteur, Palais et demeures de Tunis, (XVIII - XIX° siecle), C.N.R. S. Paris 1971

الإهمال أكثر والغموض أشمل،ومع ذلك فإنه يمكن الاستفادة من بعض نماذج المساكن التي ما تزال قائمة هنا وهناك في المغربين الأوسط والأقصى في التعرف على الخصائص المختلفة لهذه الدور في هذه الفترة وما بعدها والتي يمكن اعتمادها حقائق نسبية انتهت إليها مسيرة التطور والتغيير التي شهدته المساكن والدور في ماض أكثر قدما، بالرغم من اعترافنا بأن الاستفادة من ذلك ليس بالأمر الهين أمام غياب الشواهد المادية الموثقة والمؤرخة لتلك الدور والمساكن في تلك العصور، وفي هذه الحالة تصبح النصوص ذات فائدة معتبرة ، ومن النصوص الهامة التي تتعلق بطبيعة البناء وكيفيته وشروطه ومواده ومدته وتصميمه وزخارفه، النص الذي أورده ابن مرزوق كشاهد عيان عن **بناء السلطان** أبي الحسن المريني ل**دار** لسكنى عروسه الأميرة الحفصية القادمة من تونس، ابنة أبي يحي الحفصي.

صورة الدار المغربية عند ابن مرزوق (٧١١ - ٧٨١هـ / ١٣١١ - ١٣٧٩م): فقد جعل ابن مرزوق المدة القصيرة لبناء الدار دليل على اقتدار السلطان أبي الحسن وضخامة ملكه وشموخ همته وعلو قدره، فيقول:"[فقاربوا (مرسوليه بعروسه) تلمسان، فوردت كتبهم من البطحاء[٤] ، دخل ودخلتُ معه نتمشى لينظر لها في دار تختص بها، فلما تطوف على الدور قال لي:" والله ماهو من النظر ولا من الإعتناء بهذه الواردة أن تسكن في دار سكنها غيرها وما الوجه إلا أن يبنى لها موضع يختص بها"ثم أمر بإحضار أرباب الصناعات من البنائين والنجارين والجباسين والزليجيين[٥] والرخامين والقنويين[٦] والدهانين والحدادين والصفارين، وعندما حضروا أمامه قال لهم:"أريد دارا تشتمل على **أربعة قباب مختلفة ودوريتين**[٧] تتصلان بها منقوشة الجدران بالصناعات المختلفة بالجبس والزليج والنقش في الأرز المحكم النجارة والصناعات المشتركة، ونقش ساحة الدار وفرشها زليجا ورخاما بما فيها من طيافر الرخام والسواري. والنجارة في السقف مختلفة باختلاف القبب بالصناعات المعروفة عندهم المشتركة المدهونة والأبواب بالصناعات المؤلفة والخزائن والخوخ جميعها والحلية في جميع ذلك من النحاس المموه بالذهب والحديد المقصدر"، وعندما انتهى من كلامه معهم، أمسك بكاغد وقلم ورسم لهم قدر ساحتها وأوضح لهم عملها فلما تم هذا قال لهم:" أني أريدها في مثل هذا اليوم يكون... ان شاء الله دخولي إليها" فقالوا:" نقدم الإستعانة وسعادتك" فما انقضى الأجل وتم الأمر وجاء اليوم المعلوم إلا وهو يتمشى فيها على الوجه المشروع والغرض الموصوف..."[٨].

3J.Revault, L. Golvin, A. Amahan, Palais et demeures de Fes, T.1, Epoque Merinide et Saadienne, (XIV - N.R. S, paris 1985.XVII° siecle) , C. N.R. S, paris 1985

٤ مدينة البطحاء: موقعها مجهول اليوم،والأغلب أنها كات تقع على الطريق الكبير المؤدية بين تلمسان والجزائر على الضفة اليسرى لوادي منبقرب إغيل إ.زّان"ربوة الذئاب" المشتق منها إسم مدينة غليزان الحالية المشيدة أسفل ربوة الذئاب.أنظر في ذلك /حسن الوزان ،وصف إفريقيا، جـ٢، ص.٢٧ ـ ٢٨، ٢٥١.

٥ المختصون في الزليج (الفسيفساء الخزفية) صناعة وتركيبا .

٦ هم المختصون في صناعة القنوات الفخارية، وتركيبها وتوصيل المياه عبرها إلى الدور والقصور وغيرها .

٧ المقصود بالقباب(القراغات المربعة)،والدويريتين : الجناحين.

[٨] ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر ١٩٨١ ، ص. ٤٤٨ ـ

وقد جرت هذه الحادثة في المنصورة بتلمسان شكل (١ـ ٢) مثلما توحي به عبارة ابن مرزوق:"...وقاربوا تلمسان فوردت كتبهم من البطحاء، دخل ودخلت »[٩] وهوما يؤكده ابن خلدون في قوله:" ...ولما بعث (أبو الحسن) إليه (إلى أبي يحي الحفصي) في الصهر وأشيع بتلمسان أن الموحدين ردوا خطبته، نهض من المنصورة بتلمسان، وأعدّ السير إلى فاس، ففتح ديوان العطاء وأزاح علل عساكره، وعقد على المغرب الأقصى لحافده منصور ابن الأمير أبي مالك وفوض إلى الحسن بن سليمان بن يرزكش في أحكام الشرطة وعقد له على الضاحية وارتحل إلى تلمسان مضمر الحركة إلى افريقية حتى إذا جاءه الخبر اليقين بالإسعاف والزفاف سكن غربه وهدأ طائره" [١٠].

غير أن جورج مارسيه في إشارته لنص ابن مرزوق اختلط عليه الأمر فجعل أبا الحسن يبحث عن الدار في فاس وليس في تلمسان على غير ما ذهب إليه ابن مرزوق وابن خلدون فذكرا أن السلطان أبا الحسن وهو يستعد لاستقبال الأميرة الحفصية التي سيتزوجها بحث عن دار في مدينة فاس تليق بها فلم يجد، فقرر بناء دار لها..." [١١].

يتبين من هذا النص جانبين: **الأول/** معماري إنشائي : بناء دار من أربعة حجرات المعبر عنها بالقباب الأربعة، وكلمة الدار تعني فيما تعنيه في المشرق القصر، وتصغيرها دويرة أو دويرية، هذا وإضافة إلى الدار الكبيرة طلب أبو الحسن من البنائين بناء دويريتين صغيرتين ملحقتين بالدار الكبيرة وذلك لتكون مأوى للخدم والزوار، والصورة المعمارية لهذا النص:مسكن من أربعة حجرات تحيط بفناء مركزي، ثم جناحين،**والثاني/** فني جمالي:تعددت فيه مواد الزينة والزخرفة لتضفي على المكان البهجة والجمال.

ولعل من أهم هذه النصوص أيضا التي تحدد تقاليد المسكن المغربي بصفة عامة ومساكن فاس وتلمسان بصفة خاصة هي نصوص إبن فضل الله العمري وحسن الوزان (٨٨٨ ـ ٩٥٧هـ / ١٤٨٣ ـ ١٥٥٠م) [١٢].

صورة الدار المغربية عند إبن فضل الله العمري (٧١٠ ـ ٧٣١هـ/١٣١٠ ـ ١٣٣١م :

وابن فضل الله العمري، مؤلف مشرقي ،أعطى صورة تشخيصية للمنزل الفاسي في أوائل القرن ٨هـ/ ١٤م، وأهمية هذا المؤلف أنه وهو يوثق لحديثه كان ينقل عن المصادر القديمةكالبكري والمعاصرة له أو القريبة منه كابن سعيد وغيره،كما كان يلتقي مع شخصيات مغربية من تونس أو تلمسان أو فاس، ويتحادث معهم، ويسألهم عن بلادهم، وأقسامها وخصائصها، وينقل عنهم شهاداتهم في قوله: وحدثني الشيخ العلامة ..أنها..[١٣] ومن بين ما أورده عن محاوريه من المغاربة وصفه لدور فاس الجديدة التي هي بمثابة القصور للطبقة الحاكمة أو الثرية في البلد[١٤].

١ ـ الدور الملكية أو القصور: وقد وصف العمري إحدى الدور الملكية التي يسميها قصرا ، وتقع في قصبة مدينة فاس الجديدة [١٥]،ويمكن أن نتصور هذه لدار الملكية مما يذكره العمري، وهي كالتالي: من حيث **موقعها** فهي وسط بستان يحف بها: أشجاره متنوعة وأغراسه مختلفة. أما **تصميم الدار** فيرجح أنها لاتختلف كثيرا عن تصميم الدور المتوسطة أو

---

[٩] نفسه، ص. 448.

[١٠] عبد الرحمن بن خلدون ، العبر، مجـ 7ص. 557.

[11] G.Manuel…, t.2, p. 548 –549 .

[١٢] حسن الوزان، وصف إفريقيا،جـ، 107.

[١٣] أحمد بن يحيي بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القسم الخاص بوصف المغرب الإسلامي، تحقيق وتعليق د.مصطفى أبو ضيف أحمد، ط. 1، توزيع سوبريس، المغرب 1409-1988، ص.81 ، 87

[١٤] عن دور فاس، انظر/ نفس المصدر، ص. 114– 117.

[١٥] العمري، مصدر سابق، ص. ١٠٧.

الصغيرة إلا ماتعلق بالحجم والإتساع أفقيا وعموديا.وإذا كان نص العمري لا يعطي صورة حقيقية للدار الملكية فإنه يمكننا تصور التصميم العام لها ولبعض أجزائها، ونعتقد أنها كالتالي: **فناء أوسط** مستطيل شديد الإتساع يحتوي على **بركتين** أو **حوضين** مائيين **متقابلين** بكل منهما **مركب** مماثل للآخر ،ويعلو نهاية كل منهما **فراغ مربع** تغطيه **قبة صغيرة** أو لطيفة على حد تعبير العمري،ويتوسط الفراغ الفاصل بين الحوضين قبة واسعة شديدة الإرتفاع يسميها العمري قبة" الرضا " ربما كانت مجلسا للراحة والإسترخاء .ويذكر العمري وفرة المياه الجارية في القصر وأنها تصل إليه من خارج المدينة على قناطر كما يصف القصر أو الدار بالعلو، وباحتوائه على قباب عالية ضخمة تليق بمقام الملوك ،فتحت في جدرها شبابيك تشرف على الخارج ، ونرجح أن هذه القباب هي التي تغطي جزء من الحجرات الملتفة حول الفناء من جهاته الأربعة[١٦] والمفتوحة على الرواق المحيط به من خلال بائكة معقودة بعقود تقوم على أعمدة .

هذه صورة الدار الملكية جزئيا في تخطيطها الأفقي، أما عناصر التخطيط الأخرى عموديا فالدار تتألف من غرف علوية ، يرجح أنها تتبع التخطيط الأفقي للدور الأرضي، فضلا عن رفاف علوية بمثابة شُرُفات، ومجالس مشرفة على الفناء بحوضيه أو محيطة به أو أسفل قبة الرضا بين البركتين أو تحت قبتيها.

ويمكن أن نعتبر هذه الدار التي أتينا على وصفها نواة لدويرات أخرى محيطة بها ، هي امتداد لها وملاحق لأفراد الأسرة المالكة من الأبناء والبنات، ذلك أن العمري يذكر أن هذه الدار للسلطان " لا يسكن معه فيها إلا حريمه وفتيانهوهم : الخدم والخصيان.[١٧] .

٢ ـ دور الأعيان وعلية القوم: واستكمالا لهذه الصورة يتحدث العمري عن نوع آخر للدور في فاس وهي دور الأعيان وعلية القوم ، ونعتقد أنها صورة لا تختلف عن صور دور الملوك والعامة إلا في الحجم والزينة والزخرفة واستخدام المواد الثمينة والفخمة في دور الكبراء والأعيان[١٨] .

فهو يصف دور الكبراء وأعيان فاس العتيقة قائلا أن" الماء مسلط على دياراتها ومساكنها(فاس القديمة) " باحتوائها على جنان ورياض مُشجرة ورياحين. أما من حيث التخطيط العام للمساكن فإن أبنية دورهم تتألف من: " ..**مجالس متقابلة على عمد من حجر وآجر ورفارف مطلة على صحن الدار، وقدامها طفافير يجري إليها الماء ثم يخرج إلى بركة في وسط الصحن وتسمى البركة عندهم صهريجا**..."، " وغالب أعيانهم يعملون لهم حمامات في بيوتهم، أنفة من الدخول مع عامة الناس،لأن حماماتهم صحن واحد لا خلوة فيها تستر بعض الناس من بعض "، " وجميع أبنيتها من الحجر والآجر والكلس موثقة البناء...والعتيقة(فاس القديمة) بسور واحد من الحجارة والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالبمن التراب والرمل والكلس المضروب، وهو أشد من الحجر " [١٩]

نموذج التخطيط : التخطيط الأفقي:وعلى الرغم من أن النص يبدو غامضا بعض الشيء، ولكن يمكن أن يفهم هذا التخطيط بمقارنته بالشواهد المادية للمساكن القائمة أو المكتشفة في الحفريات، وأنه على **النمط** التالي:فناء أوسط واسع مستطيل أو مربع،على جانبين منه ،ملثما يفهم من النص،حجرتان[٢٠] مقببتان أم من غير قبة، تتقدمهما بائكة معقودة أو من غير عقود، مشرفة على الفناء وهي من عمد أو دعامات من الجر أو الآجر وتفصل الحجرات عن الفناء، مما يترك رواقا بينهما

١٦ أنظر الهامش ٤، ص.٣.
[١٧] العمري، المصدر قبله، ص.١٠٩.
[١٨] نفس المصدر ، ص.١١٦.
[١٩] نفسه ، ص. ١١٦ ـ ١١٧
[٢٠] العمري، مصدر سابق، ص.١١٧.

يضيق أو يتسع، وفي جانب من الفناء نافورة نافثة للمياه، تتوسط حوضا يجري إليها الماء ثم يخرج منها ليصب، عبر ساقية، في بركة أو صهريج بالمصطلح المحلي(شكل ٣،٦،١٢،١٣).

التخطيط العمودي :أما التخطيط العمودي لمساكن فاس في نص العمري، فهو يتألف من رفارف مطلة على الفناء ، ويقصد بالرفارف غرف علوية بارزة تقوم على الأعمد السفلية المذكورة آنفا، يتقدمها الرواق، وهو ما ذهب إليه الأستاذ قولفان (GOLVIN)[٢١]. (شكل ٨ - ١٠)

مساكن فاس فنيا وجماليا عند العمري: من أهم خصائص مساكن فاس في جانبها الزخرفي تسقيف بعض الحجرات أو الغرف أو أجزاء منها أو زوايا الرواق المحيط بالفناء معماريا بقبة، ويشير العمري أن لأهل مدينة فاس ولع ببناء القباب، بحيث لا تخلو دار كبيرة عادة من قبتين أو أكثر[٢٢].

أما من الناحية الزخرفية،فإن بعض السقوف الأخرى زينت بزخارف خشبية مقرنصة وبعضها الآخر بزخارف لامعة بلون فضي قصديري أو ألوان متعددة.أما الأفنية والجدران المشرفة عليها وحيطان الحجرات والغرف بالرخام أو بالزليج " الفسيفساء الخزفية " الشبيه بالقاشاني،وألوانه الرئيسية الثابتة : الأبيض، الأسود، والأزرق والأصفر، والأخضر ، فضلا عن درجاتها المتنوعة وكان الأزرق والكحلي ألوان أساسية لا تخلو منها لوحة أو قطعة. وتفرش أرضيات الأفنية والدور بنوع من الآجر والفسيفساء يعرف بالمزهري [٢٣].

المرافق الأخرى للمساكن : من بين المرافق التي التي يذكرها العمري في مساكن فاس، حماماتها، ويذكر أنهم يتأنقون في بنائها، ويسوق لذلك سببا أن الأعيان والكبراء يأنفون من مشاركة العامة لهم في حمام واحد لخلو حماماتهم من الخلوات التي ينفرد بها الخاصة عادة في هذه الأماكن [٢٤].

صورة الدار الفاسية عند حسن الوزان (٨٨٨ - ٩٥٧هـ/ ١٤٨٣-١٥٥٠م) : أما حسن الوزان في مؤلفه **وصف افريقيا** في أوائل القرن ١٠هـ/ ١٦م[٢٥]، فلاشك أن ما أورده عن مساكن فاس يعد ذا قيمة خاصة تحظى بالمكانة الأولى في تشريح طبيعة المسكن وتشخيص خصائصه المعمارية وتنميط مخططه واستكمال أجزاء ذلك التخطط الذي جاء به ابن مرزوق والعمري ،لأن حسن الوزان كان أكثر دراية بالموضوع وأصدق من غيره في وصفه، لمولده، وقضائه معظم حياته وشبابه في فاس،عارفا بدورها ودروبها.

التركيب العمودي للدار : ويمكن أن نستشف صورة عمارة الدار الفاسية فيما أورده، فهو يتحدث عن مادة بناء الدور (...والدور مبنية بالآجر والحجر المنحوت بدقة ومعظم هذا الحجر جميل ومزدان بفسيفساء جميلة ...) [٢٦] ،وعن التركيب العمودي لها فهي:"...تتألف كلها تقريبا من طابقين وفي كثير منها ثلاث طبقات في كل طبقة شرفات كثيرة الزخرفة تسمح بالمرورتحت السقف من حجرة لأخرى...[٢٧]...ومن عادتهم أن يبنوا على سطوح المنازل متنزها يشتمل على عدة حجيرات فسيحة ومزخرفة جدا ، تتسلى فيه النساء عندما يتعبهن العمل، إذ يستطعن من هناك أن يشرفن على المدينة كلها..." " [٢٨]. (شكل٨ - ١٠).

---

[21] J.Revault, L. Golvin, A. Amahan, Palais et demeures de Fes, T.1, Epoque Merinide et Saadienne, (XIV -XVII° siecle) , C. N.R. S, Paris 1985,p.82.

[٢٢] العمري، المصدر قبله ، ص. ١١٧..
[٢٣] نفس المصدر و الصفحة
[٢٤] نفسه، ص. ١١٨.
[٢٥] أنظر حياته في/حسن الوزان، وصف افريقيا، جـ ١ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب،بيروت ١٩٨٣، ص.١-٢٣
[٢٦] حسن الوزان، المصدر السابق، ص.٢٢٢.
[٢٧] نفس المصدر، ص.٢٢٣
[٢٨] نفسه ونفس الصفحة.

أما **التخطيط المعماري الأفقي**: لها فهو يتكون من"...ساحة مكشوفة والحجرات قائمة في كل جوانبها وهي ذات أبواب واسعة وعالية جدا، ويصنع الأثرياء لهذه الأبواب مصاريع من خشب في غاية الحسن والدقة في النقش..." و " ...والأفنية والأروقة مبلطة بزليج مربع مختلف الألوان "...ويحيط بالساحة المكشوفة أروقة... " و "... جميع الأروقة في هذه الدور قائمة على أعمدة من الآجر...وترى في البيوت أعمدة من رخام..." و "...وتشرف الأروقة في هذه الدور على الفناء بعقود محمولة على أعمدة من الآجر مكسوة بالزليج إلى ارتفاع يزيد عن نصف القامة ..." و "...والقناطر [العقود] الموضوعة بين الأعمدة لتحمل الطبقات العليا مصنوعة من خشب ومزدانة تنقوش جميلة وأصباغ مختلفة الألوان..."و " ...ويجملون بيوتهم بخزانات في غاية الظرف مصبوغة على امتداد عرض البيت...على أن بعضهم يفضل ألا يزيد علو هذه الخزانات على ٦ أشبار (١,٢٦م) حتى يتمكنوا من بسط فراشهم فوقها..." و "...يوجد في كثير من المنازل صهاريج مستطيلة (٣ ـ ٣,٥م عرضا X ١٠ ـ ١٢م طولا X ١,٢٥ ـ ١,٥٠م عمقا)، كلها مكسوة بمربعات الزليج المايورقي وفي كل جانب [منه] سقايات منخفضة مزخرفة بنفس الزليج وتزين بعض هذه النافورات المائية بخصات من المرمر على ارتفاع نصف قامة ...وعندما يمتلىء حوض كل سقاية يفيض منه الماء إلى صهاريج كبيرة بواسطة قنوات مغطاة مبلطة أيضا بطريقة جميلة وعند ما تمتلئ الصهاريج الكبرى بدورها يخرج منها الماء بواسطة مجاري معدة حولها، ثم ينصب في بالوعات صغيرة، وهكذا يجري الماء تحت المراحيض ويذهب إلى النهر،، ويُعتنى بالصهاريج دائما لتبقى في غاية الصفاء والنقاء ولا تستعمل إلا في الصيف حيث يستحمون فيها رجالا ونساء وأطفالا..." [٢٩]

هذه هي الصورة التي تركها حسن الوزان عن المنازل الفاسية في أوائل القرن ١٠هـ/ ١٦م، وهي في الواقع صورة عامة للمسكن الإسلامي مغربا ومشرقا تتفق مع صورة المنزل الفاسي في القرن ٨هـ/ ١٤م لتستمر بعده إلى العصر العثماني،وهي صورة كادت تتفق فيها جميع النصوص التي أتينا على ذكرها.وبالرغم من أن أكثر هذه النصوص اكتمالا هو نص حسن الوزان الذي يمكن اعتباره تعبيرا وافيا وعاما عن أي مسكن إسلامي،وربما كان نص ابن مرزوق أقرب في تفاصيله إلىحسن الوزان، وقد اختص نص العمري مع نقص في عناصره التخطيطية بمساكن الكبراء والأعيان، ولكنه يتفق جزئيا مع حسن الوزان وابن مرزوق.

الصورة المستخلصة من النصوص للدار المغربية في العصر المريني ـ الزياني : يمكن أن نستنتج من النصوص الثلاثة السابقة الذكر صورة تشخيصية عامة وموحدة للدار المغربية فخصائص ومميزات مخططها المعماري متشابه، وعناصر ذلك التخطيط الأساسية هي التالية، نفضل ترتيبها بالشكل التالي :

المخطط :

الفناء الأوسط (شكل ١٥): مكشوف مفتوح على السماء ، مفروش بالزليج،يحتوي على خصة(فسقية) نافثة للمياه داخل حوض(بركة ـ صهريج)، ونوع آخر من الأفنية هي أفنية دور السلاطين وقصورهم، وتحتوي علىفناء به بركتين(حوضين أو صهريجين) مائيتين شديدتي الاتساع غطي نهايتيهما المتطرفتين بقباب صغيرة وجهزتا بمركبين كبيرين، ويفصل الحوضين فراغ مربع متسع غطي بقبة ضخمة.

الرواق: الفراغ الفاصل بين الحجرات والغرف وبين الفناء،ويشرف عليه بائكة معقودة تقوم على أعمدة أو دعامات رخامية أو من الآجر أو الحجر، وتكسى هي وبطن العقود وسوالفها الصاعدة

[٢٩] نفس المصدر ، ص.٢٢٢ ـ ٢٢٣.

والأشرطة التي تعلوها بالزليج،وهذه البائكة المعقودة تحمل بدورها الرواق العلوي للطابق الأعلى الأول أو الثاني.

الحجرات:وهي مفتوحة على الرواق أبوابها ذات مصاريع خشبية وخزائن حائطية في داخلها، وجدرانها المشرفة على الرواق مكسوة بالزليج المتعدد الألوان.

الغرف العلوية: وهي غرف تتبع في تخطيطها ونظامها نظام وتخطيط الحجرات السفليةوتشرف بدورها على رواق يفصله عن فراغ الفناء دربوز أو درابزين خشبي من خشب الخرط.

التغطية أو التسقيف: استخدم في التسقيف القباب والسقوف الخشبية بحيث لا يكاد يخلو مسكن من مساكن فاس دون أن يحتوي على قبتين أو أكثر.

حجيرات سطح المسكن: بعض المساكن يحتوي سطحها على حجيرات صغيرة تستخدم لراحة السيدات بعد عناء العمل المنزلي أو للراحة عند القيام ببعض الأشغال فيه، وتستطيع النسوة الإشراف منه على معظم أجزاء المدينة.

الجانب الفني والجمالي في المساكن:

ـ تنوع الفنانين المساهمين في تزيين المساكن: اشتراك كثير من الفنانين المزخرفين في تزيين الدور والقصور مثلما يذكر ابن مرزوق.مثل الجباسين والزليجيين والرخامين والدهانين والصفارين.

ـ الزخارف المدهونة والمصبوغة والمحفورة:دهن السقوف الخشبية والجصية با لدهانات المختلفة والأصباغ المتعددة الألوان والزخارف الحفورة في الجص أو الخشب كمصاريع الأبواب والخزانات الحائطية في الحجرات والغرف.

ـ الزليج(الفسيفساء الخزفية): تبليط الأفنية والأروقة وفرشها بزليج متعدد الألوان أو رخام وتكسية الأعمدة والدعامات والجدران وبطون العقود وكوشاتها وأشرطتها وأحزمتها وكذلك الصهاريج والسقايات بنفس مادة الزليج.

ـ الرخام والمرمر: استخدم الرخام في الأعمدة والمرمر في خصات النافورات المائية المصنوعة من الرخام.

ـ استخدام **مواد بناء** أساسية هي: الحجر والطابية (التراب أو الطين المضروب)، بالإضافة إلى مواد أخرى مساعدة كالرخام والخشب والجص.

المسكن المغربي في العصر الزياني ـ المريني[٣٠] من خلال الشواهد الأثرية:

ويمكن مقارنة هذه الصورة للمسكن الفاسي والتلمساني التي أوردتها هذه المصادر مع ما تمدنا به الشواهد الأثرية، والدراسات المعمارية فيها، وخاصة ما يتعلق بالمسكن المريني ـ الزياني في تلمسان في القرن ٨هـ/١٤م.

وما هو معروف اليوم عن هذه المساكن قليل، ويرجع الفضل بداية إلى السيد بوريس ماسلو وهنري تيراس في دراسة أحد تلك المساكن المرينية الفاسية، وتبين من الدراسة تشابه ذلك المسكن الذي نشره الباحثان[٣١] إلى حدّ التطابق مع صورة المسكن في وصف نصوص ابن مرزوق والعمري وحسن الوزان التي ذكرناها آنفا، وهو نفس ما يقال عن الدراسة التي قام بها السيد ألفراد بال لمسكن بمدينة فاس من القرن ٨هـ/١٤م [٣٢](شكل ١٣)كان ملاكه

[٣٠] بعد سقوط الدولة الموحدية على يد المرينيين سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٧م،انقسم المغرب إلى ثلاثة دويلات، الحفصيون في إفريقية ـ تونس، والزيانيون بالمغرب الأوسط وعاصمتهم تلمسان، والمرينيون بالمغرب الأقصى وعاصمتهم فاس،حاول المرينيون إعادة توحيد المغرب تحت رايتهم بالقضاء علىالزيانيين ثم الحفصيين بعدهم،فغزوا تلمسان مرات كثيرة تحقيقا لمشروعهم،وحاصروها مرات عديدة بنوا خلال ذلك مدينة المنصورة وعمروها سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، وأعدوا الكرة مرة أخرى سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٥م.

[31] M. Terrasse, op. cit, P. 302 .

[32] B.Maslow et H. Terrasse, « Une maison Merinide à Fés », R.AF. n°368 - 369, 1936 .

يقومون بتهديمه لتعويضه بمبنى آخر جديد، وكلا المسكنين يتألفان من طابقين أو ثلاثة،وصورته التخطيطية الرئيسية : فناء أوسط مكشوف تحيطه أروقة معقودة وحجرات.

وقد توالت بعد ذلك مجموعة من الدراسات الأثرية المعمارية المغربية في العصر المريني[٣٣]، ومعظمها يتفق في تشخيص صورة تلك الدور التي ورد وصفها في النصوص السابقة. ومع ذلك فإن هذه الدراسات تبدو غير كافية من أجل اعطاء صورة حقيقية عن الإمتداد الزمني لتطور نمط الدار المغربية التقليدية عمارة وفنا، وما تزال في حاجة إلى المزيد من البحث والكشف الأثري لتحديد طبيعتها من حيث تخطيطها وتركيبها ومن حيث أقسامها وعناصرها وملحقاتها.

ولعل دراسة العمارة المدنية المرينية ـ الزيانية في تلمسان كفيلة بإلقاء المزيد من الضوء على المسكن التقليدي في بلاد المغرب بصفة عامة والمسكن المغربي في العصر المريني ـ الزياني بصفة خاصة. ولدينا من هذه العمارة السكنية مجموعة من الدور بتلمسان بعضها اكتشف في حفريات محدودة وآنية، ومع أهميتها فهي في بدايتها كالمسكن المكتشف في حفرية المنصورة المرينية بتلمسان (شكل ٣)، والبعض الآخر منها ما زال قائما في مكانه محافظا على صورته التخطيطية الأولى، كدار السلطان " قصر أبي الحسن المريني في العباد "، (شكل٥ ـ ٧)وبعض دور تلمسان الزيانية ومن أهمها مسكنان: أحدهما في درب السلسلة والآخر بدرب باب زير، وهما حيان من أحياء المدينة.(شكل ٨ ـ ١٢).

تتميز المساكن الأربعة التي نحن بصددها، بتشابه عام في صورتها التخطيطية وأقسامها وعناصرها وأجزائها ولا تختلف إلا في تفاصيلها المعمارية والفنية بالنسبة للدور القائمة، ويمكن أن نقسم هذه الدور إلى ما يلي :

أولا/ داران مرينيتان: هما الدار المكتشفة في حفرية المنصورة (شكل ٣) ولا تحتوي إلا على صورتها التخطيطية الأرضية ودار السلطان(قصر) أبي الحسن بالعباد (شكل ٦) وهو واضح المعالم في طابقه الأرضي ولكن طابقه العلوي متهدم ، ويرجح أن المبنيين يعودان لعهد هذا السلطان الذي بناهما أثناء حملته على تلمسان واستلائه عليها سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م[٣٤].

---

[٣٣] من أهم تلك الدراسات ما يلي/ Joudia Hassar Benslimane et Mohamed Touri, salé, Etude architecturale de trois maisons traditionnelles, Rabat 1979, وأنظر أيضا الفصل المحقق للعمارة المدنية في رسالة ميشال تيراس، M.Terrasse, op. cit, P. 302, 634 - 638 .
ثم الكتاب المشترك التأليف لـ/ J.Revault, L.Golvin, A. Amahan, op. cit .

[٣٤] عبدالرحمن بن خلدون ، العبر، مجـ ٧، ص. ٥٣٢ ـ ٥٣٧

ثانيا/ داران زيانيتان: وتقعان وسط التجمعات السكنية بمدينة تلمسان ،إحداهما بدرب السلسلة (شكل ٨ ـ ١٠،١٤)، وتفتح على درب غير نافذ،والأخرى بدرب باب زير (شكل ١٢) وتفتح على زقاق نافذ، وهما حيان من أحياء مدينة تلمسان، والدار الثانية في حالة تهدم لإهمال أصحابها لها،وليس من السهل تأريخهما، لغياب دعائم التأريخ كالنقوش الكتابية والزخارف، ولكهما من حيث التخطيط والتكوين والعناصر المعمارية فهما متماثلتان فيما بينهما كما تتماثلان مع الدور المرينية في تلمسان وفاس .

وإذا كانت دار السلطان بالعباد تبدو مغايرة بعض الشيء لبقية الدور، فإن ذلك يرجع فقط لكون الدار قصرا لسلطان أكثر منها دارا للعامة، فضلا عن أن الدور بصفة عامة تختلف عن بعضها أفقيا وعموديا باختلاف الأسر التي تشغلها من حيث كثافتها وصلة القرابة بينها: فمنها مساكن فردية لعائلة واحدة أو جماعية لعدد من العائلات أو شبه جماعية لعدد محدود منها ، كما تختلف هذه المساكن في أقسامها وأجزائها من مكان لآخر تبعا لطبوغرافية الموقع ومناخه وما يتوفر عليه من مواد وإمكانيات في البناء، فضلا عما يتأثر به المبنى من مؤثرات خارجية أحيانا ومن المستوى المادي لصاحب المسكن، وكل ذلك يرتبط ارتباطا وثيقا بمجموعة من الشروط المعيشية والروحية والجغرافية والصحية والنفعية [٣٥]

وتتميز هذه المساكن، بالرغم من اختلافها فيما ذكرناه آنفا، في خصائصها التخطيطية العامة بالتطابق،وتشترك جميعها في عناصر البنية المعمارية والتركيب، كما تشترك وتتطابق مع ما أوردته النصوص التاريخية التي ذكرناها سابقا، وهو ما سوف يتضح من العرض والتشخيص الآتيان للعناصر المشتركة أو المتطابقة فيها، وأهمها من حيث:

المظهر الأفقي :**كتلة المدخل** الرئيسي، **الفناء** المركزي، **والرواق** المحيط به، ثم **الحجرات**،وأخيرا المرافق الأساسية للمسكن، أما من حيث **التخطيط والمظهر العمودي:** فإن بعضها يتألف من ثلاثة طوابق : الطابق الأرضي، والطابق الأول، ثم السطح بالنسبة للدارين الزيانيتين،والبعض الآخر يتألف من طابق واحد فقط هو الطابق الأرضي بالنسبة للدارين المرينيتين: دار المنصورة ودار السلطان.

المظهر الأفقي للمسكن/

كتلة المدخل (شكل ٦ـ١٢،٨ـ١٣) :وتشرف عل الطريق بواجهة غفلة على درجة كبيرة من البساطة،بالنسبة للدارين الزيانيتين، أما دار السلطان فتشرف واجهتها على الحديقة التي تتقدمها، وتُفتح الأبواب الخارجية للواجهات بالجهة الجنوبية الشرقية في دار السلطان والدارين الزيانيتين،ولكن هذا المدخل يفتح في الجهة الجنوبية الغربية في الدار المكتشفة بالمنصورة، ويعلو الأبواب طنف بارز يحميها من التقلبات الجوية، وتؤدي الفتحات إلى ممر منكسر على شكل اللام الابتدائي " لـ " في الدور كلها ويتجه يمينا أو يسارا.والمدخل المنكسر بهذه الطريقة يمنع من تطلع المارة في الأزقة إلى الداخل والإطلاع على الحرمات بما يتنافى مع الحرية الشخصية للعائلات فيحدث بذلك الضرر الذي نهى عنه الرسول الكريم في قوله: " لا ضرر ولا ضرار " والذي أكدت عليه كتب الحسبة والنوازل[٣٦] .

ويتصل بهذا المدخل في الدارين الزيانيتين **سقيفة** على جانب منها فقط **جلسة أو أكثر**، أو **دكانات** لجلوس الزوار قبل الإذن لهم بالدخول فهي بمثابة **قاعة انتظار** للزوار وتوفير الراحة لهم نزولا عند الآية الكريمة " يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم

[٣٥] عبدالقادر اليحوي، " البيت في المشرق العربي الإسلامي "، **المؤتمر العاشر للآثار في البلاد العربية**، الجزائر ـ تلمسان ١٩٨٢، ص.١٣ ـ ١٤.

[٣٦] عن ذلك، أنظر/ ابن الرامي(أبو عبداللهمحمد بن ابراهيم اللخمي)، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، تونس ١٩٩٩،ص.٥٧ ـ ٥٨، ٦٦ ـ ٦٧.

خير لكم لعلكم تتكرون *فئن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يـُؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم "[٣٧] ، وتوضع هذه الجلسات بطريقة يمكن رؤية الزائر دون أن يتمكن هو من التطلع إلى الداخل ، ويمكن أن تلحق بهذه السقيفة مرافق أولية كدورة مياه، أو درج متصل **بمصرية** من الخارج أو من السقيفة،كما يتصل بها من درج داخلي[٣٨] (غرفة تعلو السقيفة) أو بإصطبل إلى الخلف من ذلك ،وتؤدي السقيفة إلى الفناء الداخلي للدار عبر باب آخر داخلي.أما مدخل دار المنصورة فإنه لايختلف عن مداخل الدور الأخرى في تلمسان الزيانية ، فهو مدخل منكسر بالرغم من عدم وضوحه.

ويعد المدخل المنكسر سمة من سمات العمارة السكنية الإسلامية ويتجاوب عمليا وتطبيقيا مع القيم الروحية للمسلمين، ويعكس رؤيتهم للعلاقة الاجتماعية ويجسد نظرتهم للحياة الأسرية القاضية بالحفاظ على أسرارها وحماية حرياتها الخاصة من عيون المارة وسكان المنازل المقابلة إذا خرجوا أو وقفوا بالأبواب أو أشرفوا، ذلك أن تقارب البيوت مجاورة والتصاقا يسهل المشاهدة وكشف الحرمات، فكان تخطيط المدخل بشكل ملتو يتألف من فتحة أولى على الطريق تؤدي عبر انكسار أول إلى دهليز أو سقيفة تتصل مباشرة بصحن المنزل أو القصر وعبر انكسار ثان مما جعل أبواب المنازل على صلة غير مباشرة بأفنية البيوت باعتبارها نواة حركة أفراد الأسرة ونشاطاتها[٣٩] وخاصة ربة البيت.

الفناء (شكل١٢،٦،٣ـ،١٥،١٣ **):** وهو العنصر المشترك الثاني في هذه الدور،وأفنية هذه الدور مربعة الشكل أو شبه مربعة أو مستطيلة في دار السلطان (ب،جـ)، وللإشارة فإن هذه الدار تحتوي على ثلاثة أفنية الأول: منها مربع"ا"، ويشرف على الفناء بائكة معقودة بعقود حدوية تقوم على دعامات من الآجر ويختلف عدد هذه البوائك وعقودها من مسكن إلى آخر وذلك باختلاف حجم المسكن والمستوى الاقتصادي لصاحبه .

والفناء مفتوح على الفضاء يساعد على الإضاءة والتهوية ، وهو مجال النشاط العائلي وخاصة بالنسبة لربة البيت والأطفال، وكان أصحاب المساكن التقليدية قديما يهتمون بتزيين بيوتهم بمختلف الزخارف والأعمال الفنية، وكان الفناء يحظى بالمكانة الأولى في الزينة والزخرفة، ويمكن ملاحظة خلو المساكن من الخارج من أي مظهر من مظاهر الزينة والزخرفة بحيث يبدو بائسا، ولكن ما إن تتخطى قدم الإنسان عتبة الباب حتى يُفاجأ بمدى الرونق والجمال بداخله، فقد كان الإنسان. في السابق يعيش ويتمتع داخليا وليس للخارج، إذ كانت الحوائط المشرفة على الفناء وكوشات العقود وسوالفها والأشرطة الدائرة حول نهاية البوائك المشرفة عليه تزين بالزليج وهي اليوم مزخرفة ببلاطات حديثة، وكانت الأفنية وخاصة في دور الأثرياء تشتمل على حوض تتوسطه فافورة نافثة للمياه مما يزيد في إضفاء روح الجمال على المكان ويساعد على توفير الرطوبة وتخفيف حدة الحرارة صيفا[٤٠] ، وفي المساكن التي نحن بصدد الحديث عنها اندثرت هذه النافورات والأحواض إلا دار السلطان فإن فناء الجناح الثالث (جـ) من قسمها المركزي يحتوي على حوض مستطيل ٢,٩٠ X ٠,٨٠م X م) يتجه شمال ـ جنوب، لاشك أن نافورة كانت تتوسطه (شكل ٦).

وإذا كان جدار القبلة هو المحور الأساسي للمسجد فإن الفناء هو المحور الأساسي للمسكن، فهو نواته الأساسية بناء ووظيفة وزينة.

---

[٣٧] القرآن الكريم، سورة النور، الآية ٢٧ ـ ٢٨.

[38] J.Revault, L.Golvin, A. Amahan ,0p cit , p. 98.

[٣٩] عن المدخل المنكسر،أنظر/ د.محمد عبدالستار عثمان، المدينة الإسلامية،عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٨،ص.٣٤٢.

[٤٠] تيتوس بوركهارت، " فاس "، في المدينة الإسلامية ،ترجمة أحمد محمد تعلب،اليونسكو ـ السيكومور / فجر ١٩٨٣،ص.١٧٦.

الرواق (شكل ٣،١٢،٨،٣ـ١٣، ١٥) : يحيط بالفناء في الدور المرينية والزيانية في تلمسان رواق يختلف اتساعه من دار إلى أخرى إلا في دار السلطان فإن هذا الرواق يختلف وضعه من فناء إلى آخر، فالرواق يحيط بالفناء الأول"ا" من ثلاث جهات فقط، باستثناء الجهة الشمالية،ويحيط بالفناء الثاني"ب" من جهتين:الشرقية والغربية،بينما يحيط في الفناء الثالث بجهتيه الشمالية والجنوبية فقط ،ويرتفع الرواق عن أرضية الفناء بحوالي ٢سم ، ويشرف الرواق على الأفنية ببائكة وترية من ثلاثة عقود[٤١] وخاصة بالنسبة للأفنية المربعة وربما تجاوز ذلك بالنسبة للأفنية المستطيلة ،ومن مهام هذا الرواق في المساكن التخفيف من حدة الإبهار وتكسير التيارات الهوائية وتسهيل القيام بالنشاطات المختلفة لربات البيوت وحركة الأطفال بعيدا عن أشعة الشمس صيفا وسقوط الأمطار شتاء، وهو بهذا المجال الحيوي المكمل للفناء[٤٢].

المستوى بين الطابقين الأرضي والأعلى:ويشغله الدرج الصاعد إلىالطابق الأعلى المتصل بالفناء والرواق المحيط به، ويقع في الجهة الشرقية من الفناء في دار درب باب زير،وإلى الشمال في دار درب السلسلة .ويقع أسفل هذا الدرج في دار باب زير مرحاض يشغل سمك الدرج في أسفله، بينما يشغل الجهة الشرقية من الجناح الثاني بالقسم الأوسط من دار السلطان، ويصعد لا إلى طابق علوي ولكن لغرفة علوية قد تكون مخزنا للمواد الجافة أو الصلبة أو السائلة، ذلك أن دار السلطان تخلو من الطابق ربما لإندثار القصر وهو ما يقال على دار المنصورة المكتشفة في الحفرية، وقد استغلت بعض الفراغات في المساكن الأخرى لوضع المراحيض،ويشغل هذا المستوى عادة فراغات وحجيرات صغيرة لاستخدامات ثانوية[٤٣].

الحجرات (شكل ١٢،٨،٦،٣ـ١٣): وتحيط الحجرات بالفناء من جهاته الأربعة، وأبوابها مفتوحة على الرواق بمنتصفه وبطريقة محورية مع بعضها، وعقدت الفتحات بعقود حدوية ،وتتخذ حجرات الدور المذكورة آنفا شكلا مستطيلا مساحته عموما ٨ ـ ١٠م x ٣م مع إدخال بعض التعديلات على بعض الحجرات في معظم المساكن لكي تستجيب لمتطلبات سكانها وحاجتهم إلى مرافق متنوعة.وعموما فإن الحجرات المستطيلة تنقسم إلى ثلاثة أجزاء : **جزء أوسط** اكثر اتساعا تفتح عليه في منتصفه باب الحجرة يحيط بها نافذتان متوسطتا الحجم معقودتان بعقود حدوية أو مدببة، ويمثل هذا الجزء حوالي ثلاثة أضعاف الجزئين الباقيين وهما **الجزآن المتطرفان** ويرتفعان قليلا على الجزء الأوسط بـ ١ ـ ٢سم ومساحتهما حوالي 1/3 الجزء الأوسط، ويفصلهما في الأعلى عنه عقد كبير نسبيا حدوي الشكل.ويستخدم هذان الجزآن للنوم بوضع الأسرة فيهما،أو استغلال أحدهما للنوم والأخر لوضع أثاث البيت من أغطية وأفرشة، وإذا كانت هذه الحجرة في مسكن المنصورة تفتقر إلى التقسيمات الثلاثة من خلال العقدين اللذين يفصلان الجزئين المتطرفين في الحجرة، فإن ذلك التقسيم يتضح في أرضية الحجرة التي يرتفع فيها الجزءان المتطرفان عن الجزء الأوسط بحوالي١ سم،وبالتالي فهي تخضع لنفس النمط الموحد لتخطيط المسكن المغربي خصوصا وأن الدار المكتشفة في المنصورة تعبر حقيقة عن تطور المسكن المغربي في القرن ٨هـ/١٤م[٤٤].

---

[٤١] محمد نقادي،التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالته الإجتماعية، رسالة ماجستير معهد الثقافة الشعبية ـ جامعة تلمسان، السنة ١٩٩١، ص.١٤٠.

[42] A. bazzanz , Maison d'al-andalus,habitat médiéval et structures du peuplement dans l'espagne oriental ,madrid 1992 , p. 189.

[43] J.Revault, L.Golvin, A. Amahan , op. cit , p. 99.

[٤٤] عن طبيعة الحجرات في المساكن المختلفة وفي دار المنصورة، أنظر/ د.عبدالعزيز لعرج، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، رسالة دكتوراه دولة،معهد الآثار جامعة الجزائر ، ، ١٩٩٩ ، جـ ١،ص.٤١٥.

وغالبا ما تكون الحجرة الرئيسية أكثر هذه الحجرات رونقا وجمالا بما يضفي عليها من الزينة والزخرفة، وذلك بأساليب فنية عديدة كالحفر على الجص والتلوين والزليج أو الفسيفساء الخزفية ، وفي الفترة العثمانية باستخدام البلاطات الخزفية ، ويتضح من دراسة الحجرات في مسكن المنصورة أن معظم الحجرات كانت مغطاة أرضياتها بالفسيفساء الخزفية وأن الحجرة الغربية كانت جدرانها مكسية بزخارف جصية ملونة قوامها زخارف نباتية وهندسية باللون الأسمر والبني الغامق والأخضر الفاتح، وهو ما عبرت عنه النصوص التاريخية السابقة، مما يستنتج معه أن معظم دور وقصور الملوك والأعيان وعِلية القوم من ذوي الثروة والجاه كانت على هذا النمط من الزينة والزخرفة[٤٥].

وقد تحتوي الحجرة بأجزائها الثلاثة على إضافات تتطلبها احتياجات صاحب البيت كالدخلات الحائطية للكتب أو علب المجوهرات أو أدوات وحاجيات صغيرة الحجم مثلما يتضح ذلك في كثير من دور تلمسان الزيانية وفاس المرينية بما فيها داري درب السلسلة وباب زير ودار السلطان بالعباد.

[45] J.Revault, L.Golvin, A. Amahan , op. cit , p. 97.

بعض الملاحق الأساسية للدور الأرضي في المساكن:وقد عددها السيد أندري بازانا، إذ يمكن أن نلاحظ في المساكن المتكاملة إحتواء الطابق الأرضي على **حجرة صغيرة** تستخدم كقاعة جلوس ونشاط لربة البيت وعادة ماتقع هذه الحجرة الصغيرة نسبيا بالقرب من مخزن المؤونة والمواد الغذائية، والحجرة مستطيلة أو شبه مربعة وهي أقل حجما من حجرات النوم الأخرى وتخلو من الأجزاء الجانبية في الحجرات الأخرى.

المخزن : ويقع في أحد الجهات الرئيسية للمسكن بالقرب من المطبخ وربما اتخذ مكانا له على مستوى أسفل الصحن ينزل إليه بدرج، وهو على هيئة حجرة متوسطة الحجم مستطيلة أو مربعة غالبا ما تكون مفتوحة على الفناء بباب صغير ونوافذ أو كوات نافذة ضيقة مثلما تفتح بنوافذ أو كوات أخرى على الخارج، وذلك للتهوية والإضاءة، وتشغل في حوائط المخزن دخلات مختلفة الحجم تستخدم لوضع المواد الغذائية المختلفة الجافة وشبه الجافة والسائلة، فضلا عن مد حبال بين الحوائط لتعلق عليها مواد أخرى .ويعد المخزن في المساكن االقديمة على درجة كبيرة من الأهمية من حيث تخزين المواد الغذائية وحفظها وخاصة أيام الأزمات والكوارث الطبيعية والحروب الأهلية والغزوات الخارجية وخاصة المنتهية منها بحصار طويل أو قصيرللمدن، كالحصار الطويل الفاشل لتلمسان على يد أبي يعقوب يوسف المريني الذي دام سبع سنوات، والحصار الذي ضربه حفيده أبي الحسن على نفس المدينة ولم يدخلها إلا بعد سنتين[٤٦] وكان نظام تخزين الأقوات الفردي والجماعي أحد العوامل المساعدة على المواجهة والتصدي للحصارات.

المطبخ : وهو أحد مرافق وملاحق المسكن الهامة، ويختلف مكانه من مسكن إلى آخر، ويتخذ في أحد زواياه بالقرب من المخزن وقاعة الجلوس والمرحاض،فهو في الركن الشمالي الشرقي في دار درب باب زير،وفي الركن الشمالي الغربي في دار درب السلسلة وملامحه غير واضحة في دار السلطان بالعباد وربما كان بأحد الأقسام الجانبية المفصولة عن القسم الأوسط والمشغولة من عائلتين حاليا، ومساحة المطبخ متوسطة عموما، وشكله مربع أو مستطيل، يفتح بباب على رواق الفناء، وفي أحد جوانبه غير المتجهة إلى باب الدخول المتصل بالفناء، يشغله الموقد أو الكانون بمدخنته المتجهة إلى الخارج، وفيالجهة المقابلة صندوق كبير لوضع الفحم ومواد الإ ِشعال والوقود، بينما يشغل الجهة المقابلة للباب حوض للماء أو مغسل، وكما يعبر المسكن الفخم على المستوى المادي لصاحبه فإن المطبخ بنظامه وحجمه ومحتواه يعبر بدوره على ذلك المستوى المادي[٤٧].

المراحيض :وهو من المرافق الأساسية للدور، ويقع غالبا بعيدا عن البئر في الفناء حماية له، ومنفصلا عن المطبخ، وكثيرا ما يتخذ في الدور المتوسطة في هيكل الدرج الصاعد للطابق الأول كما في دار درب باب زير أو في ركن جهة من الجهات التي تشغلها المطبخ كما في دار درب السلسلة ، أو في أحد جوانب رواق الفناء كما في دار العباد،وفي كل الأحوال فإن مدخل المرحاض منكسر وملتو ذو انكسار واحد أو انكسارين ويؤدي إلىحجيرة ضيقة يشغل عمقها فتحة الكنيف وعلى يمينها حُويض صغير ضيق ملاصق للحائط ومتصل بمجرى مائي جاري صغير .

المظهر العمودي للمسكن/

[٤٦] مرجع سابق،ص.١٨٨.يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكرالملوك من بني عبدالواد،تحقيق د.عبد الحميد حاجيات،الجزائر ١٩٨٠،ص.٢١٠ ـ ٢١٩،٢١١.

[47] A. bazzana , op.cit, p. 126 , 190.

الطـابق العلـوي (شكل ٨ـ٩) : يلاحظ أن الطابق العلـوي في أي مسكـن قديم في تلمسان و غيرها يُميز من الخارج ببروز عن الحائط بينه وبين الطابق الأرضي أو الأعلى وهو مشكل بواسطة تنظيم قطع من الآجر أو مربعات خزفية أو صفائح مربعة أو مستطيلة من حجارة الأردواز، ويساعد في نفس الوقت على حماية الحائط نفسه من التقلبات الجوية والتخفيف من أثر مياه الأمطار، كما تظهر النوافذ بارزة بدورها في الطبقات العلوية ومغطاة بشبكة من المصبعات المعدنية أو الخشبية تضفي على الغرف من الداخل شيئا من الظلال والعتمة تمنع المتطفلين من الطرقات أو المساكن المجاورة من مشاهدة ما بداخلها وربما زيد في النافذة بكسوة صغيرة من خشب الخرط إن كانت النافذة واسعة بعض الشيء، أو قد يُلجأُ إلى وضع قطعة قماش مزخرفة تنسدل على الفتحات المطاة[٤٨] وهي طريقة ما تزال إلى اليوم.

أما التكوين العام للطابق العلوي فهو يتشابه مع تكوين الطابق السفلي إلا ما تعلق فيه بالمرافق الخاصة كالمخزن والمطبخ، ذلك أن هذا الطابق يخلو من هذه المرافق ويتألف من الرواق المحيط بالفناء والذي يفصله عن فراغ الفناء سياج خشبي من خشب الخرط على شكل شبكة من عناصر شطرنجية أو مربعات أو دوائر ونجوم أشبه بالأطباق النجمية .ويتصل بهذا الرواق أو الدربوز بالمصطلح المحلي كما يسمى الدرج الواصل بين الطابقين الأرضى والذي يعلوه.

أما الجهات الأربعة من الرواق المشرف على الفناء فقد شغل بغرف مستطيلة متشابهة فيما بينها ومتطابقة مع حجرات الطابق الأرضي، إلا ما قد يلجأُ إليه صاحب المسكن من تكييف يتطلبه الوضع العائلي من حيث إمكانياتها المادية وعدد أفرادها،وتتكون من نفس الأجزاء التي تكون حجرات ذلك الطابق من حيث انقسام الغرفة إلى ثلاثة أجزاء أوسطها أوسعها للمساعدة على الحركة والنشاط العادي والجانبيين للسريرين والأفرشة والأغطية .

إن هذا التكوين المعماري نجده منمطا في تخطيط نموذجي بصفة خاصة في المسكنين الزيانيين بتلمسان بدرب السلسلة ودرب باب زير، وإذا كانت دار السلطان المرينية بالعباد لاتتوفر على هذه العناصر، فإن كثيرا من منازل فاس تخضع لهذا النظام المعماري للقرن ٨هـ/١٤م.

السطـح (شكل ١٠): يوصل إليه عبر درج صاعد بإحدى زوايا الرواق المحيط بفتحة الفناء في الطابق الأول،وعادة ما تتكون دروج الدور من دورتين تفصل بينهما عتبة وانكسار أمامها،ويقوم على أعمدة خشبية صلبة أو رخامية أقل حجما في الغالب من أعمدة الطابق الأرضي التي تتخذ قاعدة لها . وينتهي السطح إلى الداخل بسور مرتفع قليلا يصل علوه إلى المتر أو ما دونه قليلا للحماية من فتحة الفناء وفراغها، بينما ينفصل السطح إلى الخارج بسور آخر مرتفع يصل علوه إلى حوالي ما دون قامة الإنسان قليلا حتى لا يُسمح بالتطلع والإشراف على المساكن المجاورة، ولكنه يسمح في نفس الوقت برؤية الشخص الواقف في السطوح المجاورة جزئيا، وبذلك تستطيع السيدات من تبادل أطراف الحديث فيما بينهن عند استعمالهن لها في أشغالهن به كنشر الملابس أو الصوف أو بعض المواد الأخرى للتجفيف ، كما يستخدم السطح نفسه صيفا مكانا لسهرات العائلة والتمتع برطوبة الليل وهوائه تخلصا من حرارة الحجرات والغرف في حالة ما إذا كانت الدور لعائلة واحدة[٤٩].

ويلاحظ أن السطح يمكن أن يضم مرفقا من المرافق التي تحتاجها العائلة كغرفة يمكن استخدامها كبيت للصابون لغسل الملابس.ويبنى السطح بميل خفيف يساعد على تسرب مياه الأمطار شتاء عبر مجاري فخارية ضيقة مبنية في الحائط تتصل ببئر أسفل الصحن فوهته في زاوية من زواياه، وبذلك فإن مشكلة المياه في مساكن المدن القديمة محلولة بهذه الطريقة وتستخدم على مدار السنة في جميع

[٤٨] د.محمد عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص.٢٤٠ ـ ٢٤١.
[٤٩] د.محمد عبدالستار عثمان، مرجع سابق، ص.٢٤٥.

الأغراض إلا للشرب، .وتغطى فتحة الفناء في السطح قديما بشبكة خشبية أو حديدية في العهد العثماني واستُبدل ذلك حاليا باستخدام غطاء زجاجي .

تركيب سقف الحجرات والغرف: مكنتنا الدراسة الميدانية لدار درب باب زير في حالتها المتهدمة من فحص ومعرفة تركيب سقوف حجراتها وغرفها، ويتكون السقف عموما من جائزات خشبية أو عوارض لوضعها بطريقة عرضية منتظمة واحدة فواحدة دون التصاقها ببعضها كما في حجرات دار درب السلسلة، ويبدو أن دار السلطان قد تهدم طابقها الأعلى وبالتالي فلا سقف لها، أو تنظم تلك العوارض زوجيا كل إثنتين متلاصقتين تفصلهما مسافة مناسبة ومحددة، ويلي ذلك شبكة من قصب على هيئة شطرنجية أو قصبات منتظمة متلاصقة الواحدة تلو الأخرى وفي كل الأحوال تشد القصبات إلى بعضها البعض بحبال رفيعة من الحلفاء على شكل ضفيرة تمنع ، ويوضع فوق هذه الشبكات القصبية مادة طينية على هيئة قطع صغيرة جصية وطينية وحصوية،ويصب فوق ذلك طبقة سميكة من الملاط الصلب القاسي أشبه ما تكون بالطابية وذلك منعا لتسرب المياه من السطح إلى ما أسفله أو مياه الحجرات والغرف عند مسح الأرضيات تنظيفا لها ، وفي الفترة العثمانية غُطيت أرضيات السطوح والحجرات والغرف بتبليطات أرضية مربعة أو مستطيلة من الخزف أو مادة حجرية.

يتضح من مقارنة النصوص التاريخية السابقة التي شخصت صورة المسكن المغربي الإسلامي، بعضها بطريقة تفصيلية كنصوص حسن الوزان مع الشواهد المادية لهذا المسكن والتي اكتشف بعضها في الحفريات أو مساكن ما تزال قائمة بصورة كاملة أوجزئية ، ويتبين من كل ذلك أن المسكن المغربي في العصرين الزياني ـ المريني تتشابه صورته في النصوص التاريخية إلى حد التطابق مع صورته في الشواهد المادية التي تمت دراستها في أوقات مختلفة، لدرجة أن الباحث يكاد يجزم إجماع المجتمع على نموذج واحد للتخطيط ونظام معماري متشابه يشترك فيه الغني والفقير على حد سواء إلا ما تعلق فيه بالتفاصيل والمستوى المادي، ولا شك أن مرد ذلك يعود لطبيعة المجتمع الإسلامي، ومفهومه للحياة الأسرية من حيث حريتها واستقلاليتها انطلاقا من روح العقيدة والمنظومة القيمية، التي ألزمت المعمار أن يترجم ذلك عمليا في شكل نموذج لمخطط معماري موحد، هو هذا المخطط الذي تحدثت عنه النصوص التاريخية وشخصته الشواهد المادية التي أشرنا إليها سابقا.

شكل ١مجسم لمدينتي تلمسان والمنصورة خلال القرن ٨هـ/ ١٤ م والحصار المريني للمدينة

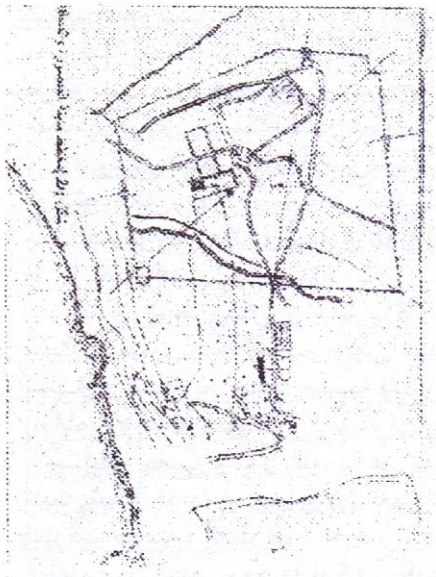

شكل ٢مخطط مدينة المنصورة والمسافة بينها وبين تلمسان

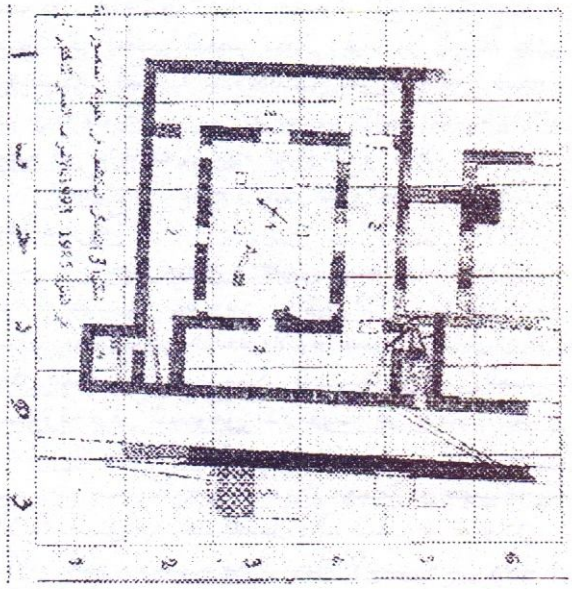

شكل ٣ المسكن المكتشف فى حفرية المنصورة -تلمسان في الفترة من ١٩٨٥- ١٩٩٣ بالإشراف العلمي للدكتور /ع.لعرج

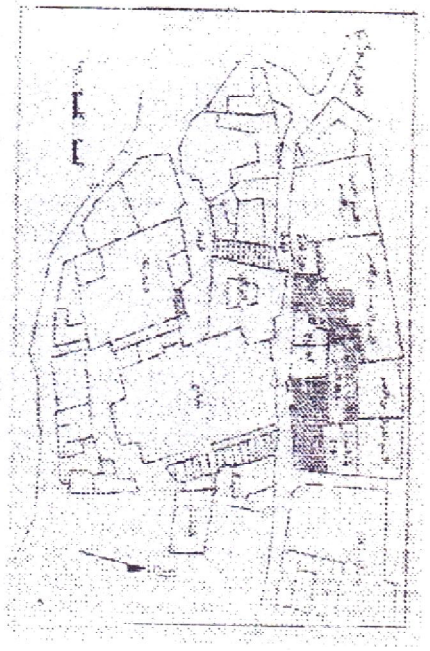

كل ٤ مجموعة منشآت العباد ، القصر شمالا

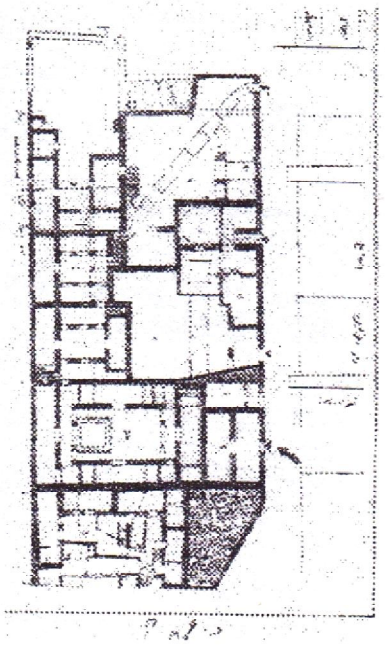

شكل ٥ مخطط قصر العباد بملحقاته وضريح سيدي بو مدين

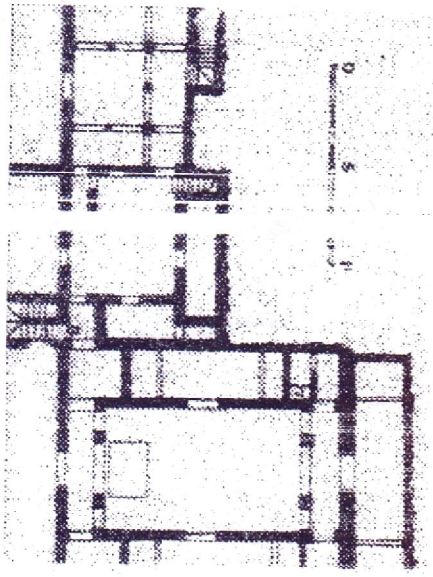

شكل ٦ النواة المركزية لقصر العباد بأجنحته الثلاثة

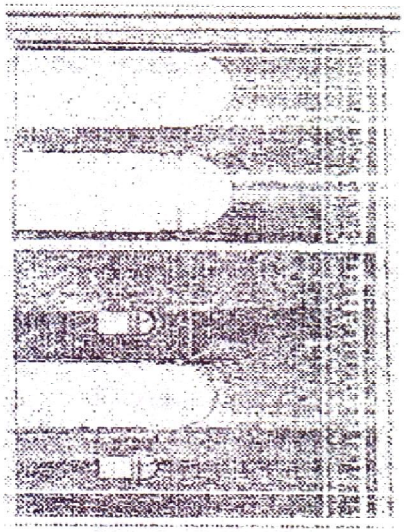

شكل ٧ عقود الرواق الجنوبي المشرف على الفناء بالجناح الثالث بقصر العباد

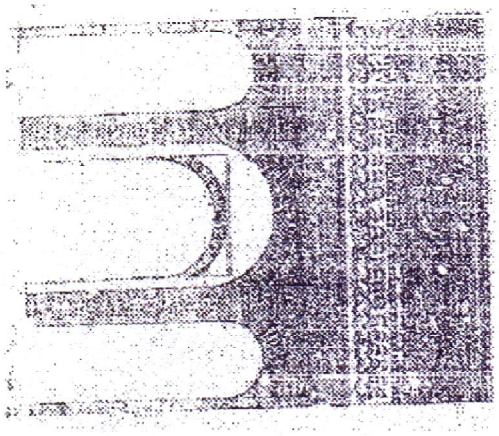

شكل ٧ عقود واجهة الجناح الأول من القسم الأوسط بقصر العباد

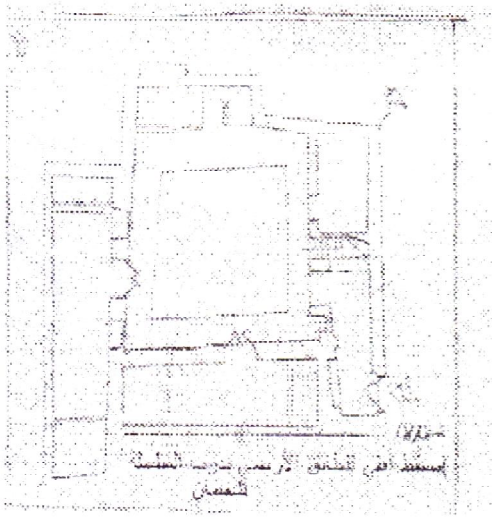

شكل ٨ مسقط أفقي للطابق الأول بدرب السلسلة تلمسان

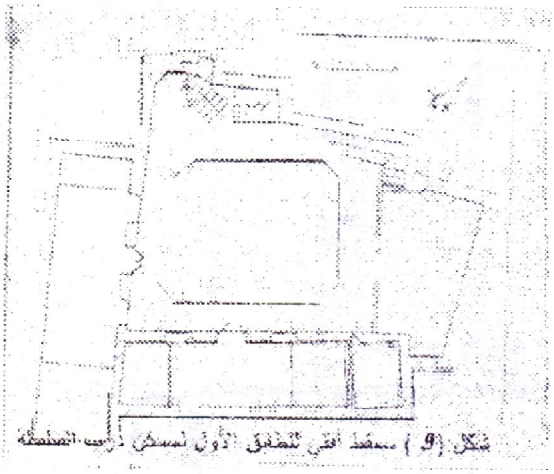

شكل ٩ مسقط أفقي للطابق الأول بدرب السلسلة تلمسان

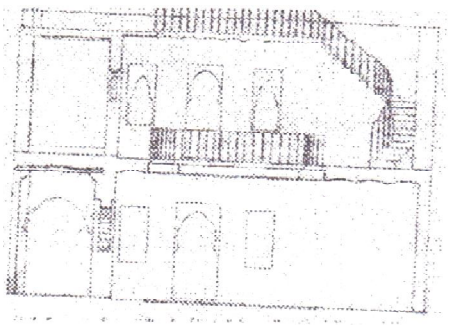

شكل ١١مقطع أفقى للواجهة المشرفة علي الفناء مسكن السلسلة تلمسان

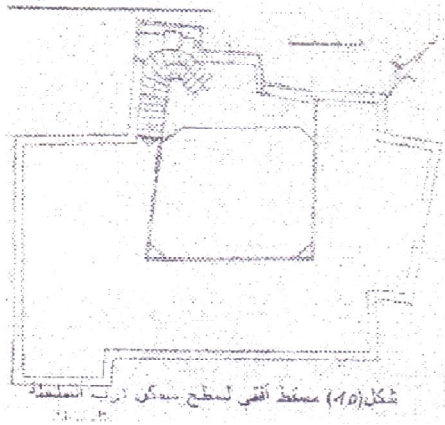

شكل(١٥) مسقط أفقي لسطح مسكن (رقم ١) السلسلة

تلمسان

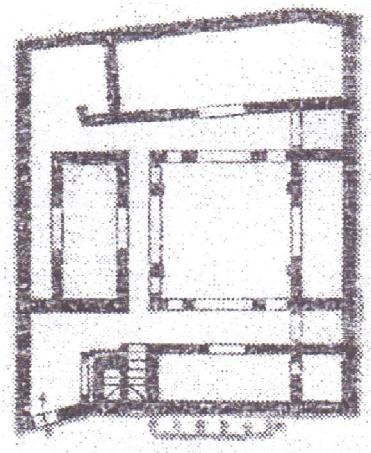

شكل ١٣ مسكن مريني من القرن ٨ هـ / ١٤ م بمدينة فاس

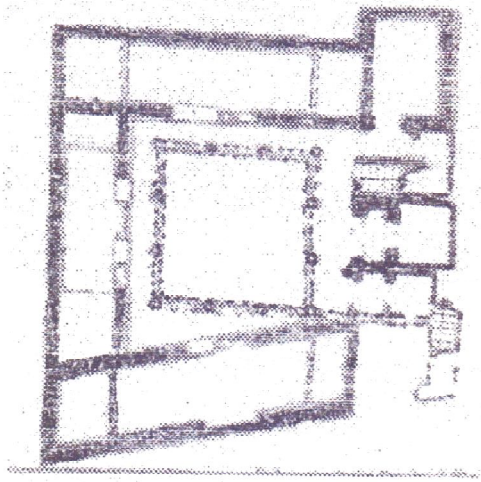

مسكن ١١ مسكن زيادة بمدينة تلمسان بدرب

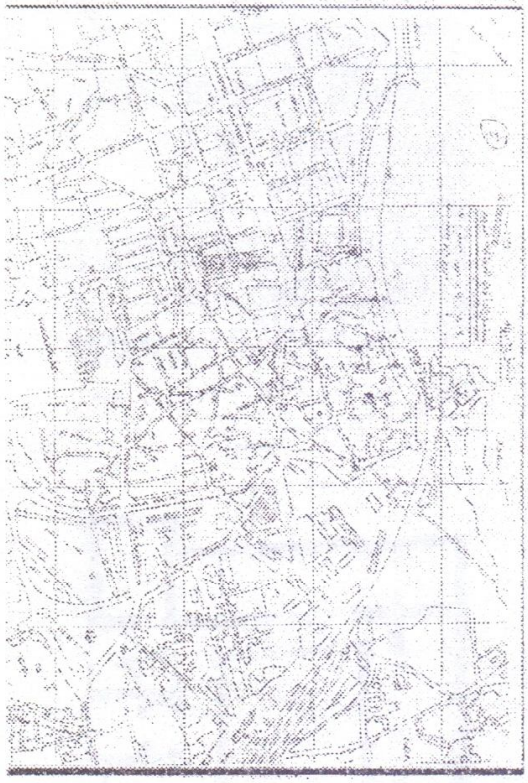

شكل رقم ١٤ مداخل
الحافة الشمالية الشرقية

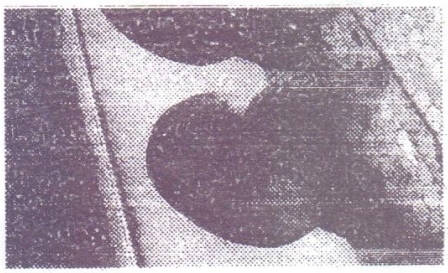

شكل رقم ١٥ فناء أحد
المساكن المغربية من
العصر الزياني – المريني